الاربعاء ٤ اب (اغسطس) ٢٠٠٤ الموافق ١٨ جمادى الآخرة ١٤٢٥هـ/ العدد ١٥١٠٤

ALHAYAT WEDNESDAY 4 AUGUST 2004 ISSUE NO 15104

مفهوم المقاومة العراقية ماذا يعني في هذه الأيام؟

خالد بن عبدالعزيز النويصر *

■ سوقت واشنطن احتلالها للعراق تحت مظلة ذرائع عدة اهمها ذريعتان اساسيتان، اولاهما هدفها المتمثل بتقويض البنية التحتية للإرهاب من منطلق ان نظام صدام حسين يمثل خطراً بامتلاكه اسلحة دمار شامل، بحسبان ان تلك الأسلحة المحظورة ربما تقع او يجرى تسويقها في ايدي المجموعات الإرهابية المتطرفة.

اما الذريعة الثانية والتي هدفت واشنطن من ورائها احتلال العراق، فتتمثل في إقامة نظام ديموقراطي يعتد به ويحتذى في المنطقة الشرق الأوسطية.

وجاءت الحقائق على الأرض العراقية مخيبة تماماً للآمال الأميركية إذ تبخرت تانك الذريعتان اوهاماً، فلا استطاعت واشنطن وضع يدها على سلاح فتاك ولا هي افلحت في اقامة مشروع (دمقرطة) العراق بل ان النقيض هو الذي ساد تماماً.

وإذا كان قد تسنى للأميركيين إزاحة نظام صدام حسين فإن المعطيات السلبية على الواقع العراقي ادت الى مجابهة الوجود الاميركي، فقد رفض العراقيون ان تاتيهم الديموقراطية والحرية على ظهر البوارج والدبابات الأميركية وحتى هذه المقولة مبتسرة وفجة. فالتاريخ السياسي يعج بالشواهد الكثيرة على مساعدة الشعوب في تحرير نفسها من الاحتلال والبطش، واشتعل العنف لا المقاومة في بلد ما زال شانه شان البلاد العربية التي تسود فيها احوال «القبيلة» والطائفية والخلافات العرقية في شكل اعمق كثيراً من شكل «الدولة» المنظمة.

ومن ينظر الى تلك المقاومة العراقية حتى وبعد تسليم السلطة الى حكومة عراقية انتقالية يتضح له تماماً ان تلك المقاومة تشكلت من فئات وجماعات لا يجمعها قاسم مشترك غير حمل السلاح توكيداً لوجودها وترسيخاً لذاتها من خلال فرض صوتها وبالتالي حيازة اكبر قدر من غنيمة السلطة و«الكعكة» الناضجة.

وكنتيجة منطقية لزوال الديكتاتوريات ذات القبضة الحديد غير الماسوف عليها فإن التركة عادة ما تكون مرهونة بفراغ كابح لكل تلك «الإثنيات» والعرقيات والمتناقضات. ومن هنا ياتي الانفلات الأمني والتصفيات والمذابح وانهار الدم المستباح. ولعل الحكومة الوطنية القائمة هي صناعة اميركية يجب مناهضتها والوقوف في وجهها.

هناك الطائفة الشيعية التي تمثل السواد الاعظم من التركيبة «الديموغرافية» والتي راحت تقاتل الاميركيين إمعاناً في فرض حضورها في المشهد السياسي ونيل حظها من تركة السلطة العراقية من طريق فوهة البندقية وقوتها.

وهناك الطائفة السنية (والكردية) التي كانت مع موعد للثار من النظام المخلوع الذي لم يتردد إبان عنفوان سطوته في إبادة شريحة هائلة منها بسلاحه الكيماوي.

هناك ايضاً «الصداميون» الذين يشدهم الحنين الى صدام ونظامه بعد ان وجدوا نفسهم بزوال النظام، من دون سلطة ومن دون مهمات. وهؤلاء جيوش شتى من البعثيين المنظمين والقوميين والجماعات الأمنية الكثيرة بل والعسكريين المحترفين في الجيش النظامي العراقي الذين تضررت مصالحهم بعد سقوط بغداد وافول نجم النظام وهم في كامل عتادهم وعدتهم العسكرية، ويعز عليهم ان ينحسر من بين ايديهم بريق السلطة والجاه.

وهناك الإسلاميون وجماعات الجهاد الإسلامي وأنصار القاعدة والافغان العرب المتشربون ثقافة الجهاد والاستشهاد ومحاربة الشيطان الاكبر، هؤلاء هم الذين سعوا الى تشكيل جيوب اسلامية معزولة عن القبضة المركزية للحكومة العراقية، يحكمون وينفذون وباسلوب اسلامي فج ما يسمونه شريعة اسلامية تحز الرؤوس حزاً نتيجة فهمهم القاصر والضيق لقواعد الإسلام.

ان مهمة اياد علاوي وحكومته الانتقالية لن يكون «المنيفستو» السياسي لها نزهة سهلة بقدر ما سيكون مخضباً بالدم والقتل ورائحة البارود في بلد مبتلى منذ فجر التاريخ بحكم او نخب سلطوية لا يعرفون حكماً إلا بقوة الحديد والنار والدم والقتل لا سيما في هذه المرحلة البالغة الحساسية في تاريخه حيث وجد العراقيون نفسهم فجاة ومن دون تدرج وانتقالية.

في حرية من العيار الثقيل بعد حقبة سياسية دامية لم تعرف إلا القائد «الضرورة» والقائد «الرمز» الذي لا ياتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. خرج الجميع من تحت الارض، خرج الشيعة وخرج السنة وخرج الأكراد والإسلامويون من المخابئ الى تجييش العساكر وتنظيم الصفوف. وانفلتت فيالق الجيش والجيوب الأمنية المتعددة التي كانت تحمي امن الدولة لا دولة الأمن.

ان الحكومة الانتقالية لا بد لها من ان تواجه ملفات وقضايا حساسة جداً كانت «مؤجلة» الى إشعار آخر من جانب النظام المخلوع، وعندما يجرى فتحها فكل قضية منها كفيلة بفتح طاقة من «جهنم» العنف على العراق وشعبه. ثم هناك ضرورة امتصاص او تذويب المشروع الحضاري التعبوي الذي استطاع النظام المخلوع من خلاله حشد الشعب كله نحو سراب وشعارات زائفة كالاضطلاع بحماية لواء العروبة والدفاع عن بوابتها الشرقية وتجييش الشعب كله حول تلك الأوهام الزائفة.

ومن المؤكد ان كل هذه القضايا والفئات المجيشة لا بد لها من ان تجد عدواً وتوجه نيرانها او تصب جام غضبها على القوات الاميركية وعلى الحكومة المعينة باعتبارهما العدو المستهدف. فالتاريخ يقف شاهداً على ان زوال الديكتاتوريات وافولها لا بد من ان يستصحبا فراغاً وفوضى عارمة لا مقاومة ولا كفاحاً.

---

* محام سعودي